الفصل الثّاني

مفهوم الهويّة
وإشكاليات الانتماء والمواطنة

تمهيد

ارتبط سؤال الهويّة بظاهرة التّغيير التي شهدتها بعض الدول في عالمنا العربي بشكل واسع وحاد، وقد شكّل هاجس الهويّة واحداً من المخاوف والأسئلة والأحكام التي ارتبطت بظاهرة العولمة وتأثيراتها، وهذا ما سوف أبحثه هنا، منذ بدء تكوّن الهويّة الجنسيّة ونمو الأنا عند الأطفال، وكذلك تطور نمو الأنا في مرحلة الشّباب ولاسيما الأنا الاجتماعي الأطفال والشّباب باعتبارهم أكثر الفئات في المجتمع معاناة، وتأثراً بنتائج التّغيرات والتّحولات الاجتماعية، والاقتصادية والثّقافية التي يمر بها المجتمع. ففي السّنوات الأخيرة وجدنا أنّ العديد من علماء النّفس والاجتماع العرب اهتموا بالحديث عن موضوع الانتماء فمنهم من يرى مثلاً: إنّ التّقدم التّكنولوجي الهائل الذي يعيشه العالم خاصة في مجالات الاتصالات، يعني قدرة بعض النّظم والدّول على التّأثير الفكري والثّقافي لدى الناشئة والشّباب في الدّول الأخرى، والظّاهر للجميع أن الاتجاه العالمي اليوم نحو الدّيمقراطية، له ترويج إعلامي كبير، وهذا يفرض على الدّول الاهتمام بتربية الشّباب، ويعتبر موضوع الانتماء من أبرز الموضوعات التي تبرز للمواءمة مع عيش الدّيمقراطية وشعور الانتماء بدون لبس أو تشويه.

من هنا يبرز الاهتمام بموضوع الدّيمقراطية في مجال العمل السياسي في بلادنا ممزوجاً بشيء من القلق، حيث إن الوعيّ العام يتجه إلى القناعة بأن الصّراع

بين الدّول لم يعد صراعاً مسلحاً، بقدر ما أصبح صراعاً حضارياً وثقافياً وسياسياً، وهنا يأتي الاستقطاب الثّقافي والفكري والسّياسي في مقدمة هذا الصّراع، ولأجل هذا المسعى اهتمت الدّول بتحصين شبابها، وتأهيلهم سياسياً ضد محاولات الغزو والاستقطاب الخارجي، وكذلك تأكيداً للهويّة الوطنية وتعميقاً للانتماء والولاء.

فالتّغيرات السّريعة وغير المسبوقة في المجتمعات المعاصرة، أحدثت بعض المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في مجتمعاتنا خاصة، والتّغيرات التي حدثت وماتزال تحدث لم تكن متوازنة ومتدرجة من ناحية، ولم يكن بعضها مخططاً له التخطيط الدقيق من ناحية أخرى، وكان لذلك كله آثاره السّلبية على الأطفال والشّباب بصفة خاصة، تمثلت في زعزعة الانتماء للوطن، وإضعافه لدى بعض النّاشئة من شرائح المجتمع المختلفة، ففي قراءة المشهد السياسي الحاضر أمامنا، الذي يشغل بال عامة الناس في بلادنا العربية، نجد أنّ مشكلة العنف هي الهاجس الأبرز، وذلك لأنّها باتت ظاهرة معممة في أغلب البلدان العربية، نتيجة لحراك الشّارع العربي نحو التّغيير ونداء الحقوق الذي تصدح أصواته في كل ركن من بلادنا، سواء أكان عاماً أم خاصاً بدءاً من الأسرة إلى السّاحات العامة، ومؤسسات البلاد الرّسمية.

بوصلة الانتماء

من جراء هذا العنف الذي استشرى في جسد الأمة العربية، باتت قضية الانتماء في مجتمعنا العربي، والمجتمع السّوري على سبيل المثال، تُجابه بأقصى الأساليب والصّور سواء أكان ذلك مع الذات أم مع الآخر، وذلك عبر السّؤال المطروح اليوم أمام الجميع: هل الانتماء للوطن هو ما يجمعنا؟ أم الانتماء للطائفة؟ أم عدم الانتماء لا لهذا، ولا لذاك؟.. ونظراً لأن موضوع الانتماء مرتبط بمفهوم الهويّة، فمن الملاحظ اليوم أنّ أبرز الأسئلة ضمن الثّقافة العربية السّائدة هو: سؤال الهويّة، حيث تتداخل تساؤلات الهوية ضمن حالة الوعي الجمعي، لذلك

لا بدّ للبحث في هذه الإشكالية الكبيرة أن نبحث منهجياً عن مؤثرات مفهوم الهويّة، إنّ الطّرح اليوم بقوة وفق المنظور النّفسي السياسي تحديداً هو الانتماء للعالم، وذلك كتسويق لمشروع اقتصادي أكثر منه ثقافي أو بنيوي للوجود والوعي بهذا الوجود، وهنا حديث آخر حول مشكلة العولمة وتداعياتها...

في كل الحالات النّموذج الحضاري للإنسان المعاصر، بات يُنظر إليه اليوم من حيث كم الاستهلاك، والاستفادة بأكبر قدر من معطيات التّكنولوجيا الصناعية لهذا العصر، لذلك تنمو باستمرار العولمة العنيفة، وهناك عولمة (mondialisation) وكذلك تشابه "Homogeneisation" بمعنى أوضح هناك عولمة وتوحيد بالتّشابه للاستمتاع بتوحيد أشكاله، وهو الشّكل الأمريكي بالغالب، للعولمة، لأنّ المنافسة في العالم كانت من قبل بين الماركسية، وما بين أمريكا "Representant way in life"، وهذه الأخيرة التي تنشد سياسة عامة نحو الاستمتاع بالحياة وفق ما يلي:

توضيح الأبعاد للمفاهيم موضوع الدّراسة

عملت هذه التّروية بهدف إيجاد سياق لطرح المفاهيم، التي سوف أعمل عليها حول موضوع الهويّة شائك الأبعاد.

وسوف أنطلق في تناول مفهوم "الهويّة" من خلال بعدين أساسين يكمل أحدهما الآخر كمدخل في التّعرف على مفهوم الهويّة، ومن بعدها نتكلم عن الانتماء كمفهوم تالٍ لنمو الأنا "الهوية":

1- نمو الذات هو اللبنة الأولى للتّكيف مع الواقع والبيئة المحيطة، و"معيار التّكيف" يعدّ أحد أهم المعطيات للصّحة النفسية والعقلية .

2- الانتماء لحقبة زمنية ما، من حيث أن المعاش المعاصر مبني على عدة انتماءات للماضي والمستقبل.

فمفهوم البيئة المحيطة اختلف اليوم، وبات غير قابل للحصر بفعل الانفتاح

العالمي الدّولي، هذا الانفتاح المجتمعي الدّولي، على الحدود والاتجاهات كلّها، يعدّ اليوم معياراً للتّكيف مع العصر الحديث، وعدم العزلة عن التاريخ، ويكون التّساؤل المطروح لكلّ منا: هل الانتماء لبلد ما، أم للكوكبية الأرضية، والجواب يكون دائماً جدلياً غير نهائي من حيث أن تطّور الحضارة ونشوئها لامست الإنسان في اكتشافه لنفسه ولغيره، ولا يمكن حصرها بشعب واحد، بل هي نتاج لكل ثقافات الشّعوب.

إن العولمة اليوم تهدد الهويات، كونها تطال ثقافة الشّعوب وتقاليدها، التي كانت إلى عهد قريب عوالم تكتنفها القداسة والخصوصية.

عرّف المفكر الفرنسي "أليكس ميكشيللى"، الهويّة بأنها: منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية، تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الرّوح الداخلية، التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهويّة والشعور بها، فالهويّة هي وحدة من المشاعر الداخلية التي تتمثل في الشعور بالاستمرارية، والتّمايز والدّيمومة والجهد المركزي.

وهذا يعنى أن الهويّة هي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة التي تجعل الشّخص يتمايز عما سواه ويشعر بوحدته الذاتية (الهوية، أليكس ميكشيللى: ترجمة علي وطفة، ص: 15).

ففي أوروبا والعالم الثّالث اختلط المفهوم الثّقافي بالمفهوم الحضاري ردحاً من الزمن، من حيث إن الحضارة لها بُعد مادي، والثّقافة لها بُعد استناري، وتهذيب للذّوق وتقوية ملكة النّقد والمعايير النّقدية التي تحتوي على المعارف والمعتقدات والأخلاق في مجتمع ما، بالإضافة إلى هذا الفرز لمفهومي (الثّقافة والحضارة) التي صنعهما في النّهاية الإنسان.

مما تقدم يتضح أنه يلزمنا لتوضيح مفهوم الهوية الإنسانية، الرّجوع إلى الأنثروبولوجيا، والخوض فيما توصلت إليه البيولوجيا، وفي هذا السّياق تأتي النّظرية النّشوئية، التي طالت الإنسان في تيارين يتحكمان في تطّوره وتقدمه...

الأول: التاريخ شاهد على تطورات هائلة للإنسان، والمجتمع من حيث اعتناق الأديان والمبادئ الأخلاقية، التي نقلت الإنسان من الظّلام إلى النّور ومن الجهل إلى العلم، ومن الهمجية إلى الإنسانية، ومن الأنانية إلى التّعاونية، هكذا طوّر الإنسان مفاهيمه وقيمه ومعتقداته بتراث تاريخي دون توقف.

الثّاني: علم حديث يعتمد على التّحوليّة، والتّغير في ضوء المكتشفات العلمية (النّباتية والحيوانية) وعلم الفلك والتّيار البيولوجي "علم نشوء الإنسان والأحياء" إلى علم الاستنساخ اليوم، فهذا التّطور في المجال البيولوجي، يأتي جواباً على التّغيرات، التي يمكن أن تطرأ على الكائن الحي دائماً.

الفلسفة النّشوئية، تمثل خلاصة التّيارات العلم نفسية، والخضوع لمبدأ الارتباط كل ذلك ضمن علم الأعصاب وعالم النّفس (سبنسر) يشابه بين نشوء الإنسان، وبين نشوء المجتمع، إذ يرى: أن هناك تأثيراً مستمراً ما بين النّفسي والاجتماعي، فتطور المجتمع لا يأتي إلّا بتطور المفاهيم النفسية، وهنا أوضح ووفقاً لرأي "سبنسر" بأن الصّراعات ما بين الاجتماعي والفردي، تكون على صعيد الميول والغرائز، والكف عن أسبابها في سبيل الحفاظ على صور الجماعة.

قد تعددت آليات النّظر إلى المستقبل والانتماء، ووظّف العلم كماً وكيفاً بهدف إبراز ثقافة أمة ما عن ثقافة أمة أخرى، مثل الأمة الفرنسية أو الألمانية، ولكن هناك موضوعية تدفع جميع المجتمعات المعاصرة إلى إعادة هيكلية متعددة الأبعاد والمستويات، والوثائق لقيمها وهياكلها ونظمها وقوانينها ومؤسساتها، حيث غيّرت ديناميكيتها مضامين مفاهيم ومسلمات كثيرة موروثة عن قرون النّهضة الصناعية، وعملية التّحديث الموروثة عن عهد الأنوار الأوروبية، ومسلمات الدّول القومية الحديثة مثل مفاهيم الدّولة والهوية والدّيمقراطية، والحدود والسّيادة والاقتصاد والعمل والقيمة.

وعلى الرغم من الغموض الذي يلف مفهوم الهويّة، ويحيط به يمتلك هذا المفهوم طاقة كشفية لفهم العالم بما يشتمل عليه من كينونات الأنا والآخر.

استعملت كلمة الهويّة في اللغة العربية، من مصدر مركّب هو ضمير الغائب المعرّف بأداة التّعريف (الـ) ومن اللاحقة المتمثلة في (ي) وعلامة التّأنيث (ة)... استعمل الفلاسفة العرب مثل الفارابي والكندي وابن رشد وابن سينا لفظ "هويّة" المنحوتة من الضمير هو، ويلاحظ أن فلاسفتنا العرب القدامى استعملوه بوصفه مقابلاً للفظ "استين" في اليونانية للدّلالة على وجوه المعنى الذي أقره أرسطو لمفهوم الوجود...

ويسجل لابن رشد عند الأوروبيين أنّه هو: من نقل تعاليم أرسطو إلى أوروبا. "هيرتسن" الذي قال: لقد بقي أرسطو مطموراً تحت أنقاض العالم القديم إلى أن جاء الأعرابي والمقصود / ابن رشد، الذي بعثه وحمله إلى أوروبا التي كانت غارقة في ظلمات الجهل، والمستشرق الإيطالي لويجي / رينالدي بقوله: من فضل العرب علينا أنّهم الّذين عرّفونا بكثير من فلاسفة اليونان، وكانت لهم الأيدي البيضاء على النّهضة الفلسفية عند المسيحيين...

ومما يجدر ذكره هنا، أن هويّة الجماعات البشريّة، قد تمّ بناؤها أصلاً على أساس طقوس تكريم الأجداد وعبادتهم، ذاك أن تنظيم الهويّة وما رافقه من نظام حكم، جرت ترجمته بالعصبيّة القبليّة وبالنّسب، أو بتعايش أُسر عدّة ممتدة ومتمدّنة في إطار حضري "الأسرة الموسّعة".

وبذلك نصل إلى أنّ الدّين ليس الرّحم الأوّل للهويّة، وهو ظاهرة مبنيّة ومتقنة فكرياً، بل الأصل المتّقاسم لجدّ مُشترك. وقد بقي في أجزاء واسعة من المعمورة البشرية كان تكريم الأجداد في مختلف أشكاله بحسب القارّات، فقد بقي لأمد طويل المعيار الوحيد للهويّة.

وقد كان نظام الهويّة يستخدم في دعم سلطة الأقدمين، سلطة رئيس القبيلة أو جمعية الأقدمين والرؤساء، بمقدر ما كانت تنشأ تحالفات تسمح بقيام تجمّعات أكبر، بدويّة أو حضريّة.

لنجد رأي للدكتور جورج قرم المفكّر اللبناني المعروف في مؤلفه المعنون

"المسألة الدينية في القرن الواحد والعشرين" بأنّه من المحتمل أن تكون قد تطوّرت، انطلاقاً من عبادة الأجداد، الأديان التي تعودّنا على تسميتها "الأديان الوثنيّة"، حيث وتبعاً "لجورج قرم" كان تعدّد الآلهة يعكس تعدّد الأجداد. وبناءً على كلام المؤرخ الشهير الذي نشره 1866:

Numa Denis Fustel de Coulanges, La cité antique, Hachette, Paris1866.

مؤلفه هذا الذي يستذكر فيه أهمية تكريم الأجداد، ليس فقط في بلاد الرافدين أو في اليونان وروما، بل أيضاً في الشرق الأقصى، سيما في الصين واليابان.

فالهويّة وفقاً "لجورج قرم" تعمل على تنمية الشعور بالاختلاف مع ما يفترض أنّه هويّة أخرى، والهويّة هي ظاهرة اجتماعية بالمعنى القوي للكلمة، لذا فإن كلّ نظام قيّم يبني الهويّة هو في وقت واحد مكوّن أساسيّ لنظام الحكم الذي ينظم الأمن داخل المجتمع ويقرر الحرب أو السلم مع المجتمع المجاور المختلف. (قرم، 95).

أما "مصطفى حجازي" الأستاذ النّفساني الأكاديمي اللبناني المعروف، فيرى: أنّ الهويّة ليست معطى نهائياً مكتمل الصورة ولا هو مفهوم محدد، بل إن الهويّة تنطوي على عناصر متفاعلة، وأحياناً متناقضة وهي كثيرة التّشابك والتّعقيد، ومع ذلك فإنّها وجه يمكن التّعرف عليه من قسماته الأولى.

أمّا "مجدي عبد الحافظ" الأكاديمي المصري القدير، فيعرّف الهويّة من خلال ارتباطها بالمعاصرة، حيث يشير إلى أنّ الهويّة هي: مجموعة القيم والعناصر والسّمات التي تجمعت عبر العيش في مكان وزمان واحد، ورسخت إلى حد ما، بعد أن تفاعلت فيما بينها، وتفتّق عنها شكل أخير وليس نهائياً، وهو ما يميّز مجموعة اجتماعية ما، تشعر فيما بينها بشرف هذا الانتماء، والموقف من الهويّة موقف معاصر يرتبط بوجودنا وخياراتنا ومصالحنا الآنية.

والأستاذ "حليم بركات" يشير إلى أنّ الهويّة هي وعيّ الذات والمصير

التـاريخي الواحـد مـن موقـع الحيّـز المـادّي والرّوحـي، الـذي يشـغله فـي البنيـة الاجتماعية، وبفعل السّمات والمصالح المشتركة التي تحدّد توجهات الناس وأهدافهم لأنفسهم، وتعزّيهم وتدفعهم إلـى العمل معاً فـي تثبيت وجودهم، والمحافظـة علـى منجـزاتهم وتحسـين وضـعهم ومـوقعهم فـي التـاريخ، الهويّـة مـن حيـث كونهـا أمـراً موضوعياً وذاتياً معاً.

وهي وعي الإنسان وإحساسه بانتمائه لمجتمع ما أو أمة أو جماعة أو طبقة في الإطار الإنساني العام.

إنهـا معرفتنـا وأيـن نحـن، مـن أيـن أتينـا إلـى أيـن تمضـي ومـاذا نريـد لأنفسـنا ولغيرنا؟ فمفهوم الانتماء وتبعاً لارتباطه بمفهوم الهويّة يعدّ: مفهوماً فلسفياً ديناميكاً لا يمكن إدراكه إلّا في ضوء مرحلة تاريخية معنية في إطار اجتماعي بذاته، يكون نتاجاً للعديد من المعطيات والمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثّقافية والسياسية في المجتمع، كما أنّه مفهوم نفسي ذو بعد اجتماعي، وبافتقاده بشعر المرء بالعزلة والغربة، ويعتريه القلق والضيق وتنتابه المشكلات النفسية والاجتماعية، التي لها تأثير على وحدة المجتمع وتماسكه.

لذا ترى "ريتا مرهج" أستاذة في علم النفس في كتابها "أولادنا من الولادة حتى المراهقة" أنّ المراهق يحتـاج إلـى قاعـدة عائليـة آمنـة يستخدمها كمرجعيـة أساسـية ينطلق منها إلى العالم، وعندما توفر العائلة هذه المرجعية والثقة له، تتطور هويته بشكل سليم، فالمراهق الذي يشعر بالتعلق بأهله وبالوقت نفسه يشعر بالحرية في إبداء آرائه يستطيع أن يكون هوية مستقلة مبنية على قيم وأهداف من اختياره واقتناعه، ويشعر بالاستقرار، وأن يعرف إلى أين هو ذاهب...

بالإضافة إلى تأثير العائلة، فإن دور المدرسة أيضاً تقوم بدور مهم في توفير الفرص الغنية والمتنوعة لاستكشاف الحياة، يجب على المدرسة أن تسهم بشكل فعّال في تنمية التفكير الراقي عند المراهق بتقديم برامج منهجية ولا منهجية تغذي الإبداع وحب الاطلاع والتدرب على مواجهة التحديات وتحمل المسؤوليات.

أما مفردة الانتماء فتستخدم أحياناً بمعنى الهويّة، ومرادفة للولاء أو للانتساب ومرات تستخدم بمعنى التّوحد والاندماج.

إن الانتماء هو مفهوم فلسفي دينامي، لا يمكن إدراكه إلّا في ضوء مرحلة تاريخية بعينها وفي إطار اجتماعي بذاته، فهو نتاج للعديد من المعطيات والمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثّقافية والسياسية في المجتمع، كما أنه مفهوم نفسي ذو بُعد اجتماعي، وبافتقاده يشعر المرء بالعزلة والغربة، ويعتريه القلق والضّيق وتنتابه المشكلات النفسية والاجتماعية التي لها تأثيرها على وحدة المجتمع وتماسكه. وتتعدد الاستخدامات المرادفة لكلمة "الانتماء"، وتستخدم احياناً بمعنى الهويّة، وأحياناً أخرى مرادفة لكلمة الولاء، وأحياناً الانتساب، ورابعاً تستخدم بمعنى التّوحد والاندماج إلى آخر ما هنالك من التعابير المماثلة كالانسياق والرضوخ...

وتأتي هذه الاختلافات تبعاً لما أوردته قواميس اللغة بمختلف اللغات، ويرجع مختار الصّحاح الانتماء إلى أصل الفعل (نمى) ويقال نمى الحديث إلى فلان أي أسنده له ورفعه، ونمى الرجل إلى أبيه أي نسبه، وقد اتفق معه في المعنى نفسه معجم لسان العرب الذى يرده "إلى الفعل نمى"، والنماء بمعنى الزّيادة، ونَموته أي عزوته ونسبته، وانتمى هو إليه، انتسب، وفى الحديث انتمى إلى غير مواليه، أي انتسب إليهم ومال وصار معروفاً لهم، ويقال نماه إلى جده، ارتفع اليه في النسب، أي رفع إليه نسبة.

ويعرف معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية الانتماء بأنه ارتباط الفرد بجماعة، يسعى إلى أن تكون عادة جماعة قوية، يتقمص شخصيتها ويوجد نفسه بها (كالأسرة، النادي، الشركة...إلخ). (محمد عبده الزغير)

ومن اللافت للنظر للمراقب المتمعن لمَا آلت إليه الأمور في الأعوام الأخيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، من حيث بروز أساليب واضحة وعلى لسان رأس الهرم للسياسة الأمريكية من ريادة في أساليب عودة الدّين، إلى حياة الأمريكيين، مقابل الريادة الأمريكية في تحريك العولمة الاقتصادية والحضارية.

فقد أعلن "جورج بوش الابن" أن أمريكا أمة مؤمنين لتصبح الحضارة الأمريكية تعكس صورة مزدوجة، جذّابة جداً، لحداثة تقنية فوّارة على انسجام مع تلك القيمة التقليدية والأبدية، ألّا وهي الدّين المعمول به بمعنى حرفي ومحافظ. وهذان الاعتباران "النمو المتواصل للتقدم التقني وللاستهلاك الجماهيري، والممارسة الدّينية" يعدّان بمنزلة رحم أولي إن لم تكن لهويّة الفرد الأساسية وللمجتمع الذي ينتمي إليه، إضافة إلى المعارك الكثيرة التي تُخاض في الولايات المتحدة حتى تحترم المؤسسات، لاسيما المدارس العامة أو النظام القضائي، أو التعاليم الدّينيّة في صورتها الأكثر حرفيّة والأشدّ محافظة.

وهذا الأمر يحيلنا إلى الاستنتاج بأن الأنموذج الحضاري الأمريكي للقرن الحادي والعشرين الذي تصنعه الولايات المتحدة، بدلاً من النموذج الأوروبي المبني على مبدأ القوميات وفلسفة الأنوار وتحرير الإنسان من كل أشكال العبودية والقمع، الذي كان سائداً في القرن العشرين والذي شكل عليه الإرث الثقافي والسياسي لثورة 1776 الأمريكية، والذي كان العالم يسعى إلى محاكاته في القارات الأربع...

المنظور النّفسي التّحليلي لمفهوم الهويّة ينطوي على اعتبار أن:

محور الميول والغرائز والصّراعات الحاصلة ما بين الاجتماعي، والفردي، تعدّ الأساس في النّظرية "الفرويدية" التي غيّرت الفهم للإنسان وحاجاته ونموه النّفسي، وكان من الاكتشافات في هذه النّظرية ثلاثة أمور مهمة تمثّلت بـ:

1- النّظرة القطبية (الثنائية) للعالم والحياة: الشعور واللاشعور، غريزتا الموت والحياة، الاكتئاب والاهتياج...

2- اللغة: للغة موقع أساسي في النّظرية الفرويدية، حيث كان المنهج العلاجي للمرضيات النفسية، وفق النّظرية الفرويدية / التّداعي الحر للأفكار المعبر عنها بالكلام، التي تسهم في تحرر المريض من الأوهام والأرق والقلق، لأن اللغة

في تكوينها وبنيتها تعطي التّصوّر للمصير المشترك الحقيقي للنّفس البشرية، فوفقاً لتاريخ الأديان السماوية الإنسان كليم الله / موسى كليم الله، عيسى ابن الله الذي بَشر بالإنجيل، الإنجيل الذي يدلل على أنه في "البدء كانت الكلمة"، والنبي محمد (ص) والإعجاز اللغوي الذي نزل عليه، من هنا أسيء فهم النّظرية الفرويدية، لأنّها رجعت إلى الأديان والأساطير واعتبرتها ميراث ثقافي، لا يمكن إغفاله إذا أردنا فهم الإنسان، رغم أن "فرويد" أدخل إلى الفهم النفسي من منطلق الفهم البيولوجي والعصبي غنىً وموضوعية، إضافة إلى تعمقه بالأنثروبيولوجيا.

وكما هو معروف أن "فرويد" كان طبيباً أولا، قبل انصرافه للبحث في مضمار النّفس الإنسانيّة، ولكن الأمر المميّز حول "النّظرية النفسيّة التّحليليّة" كونها أعلّت من شأن اللغة بكل أشكالها الشّفهية، وزلات اللسان، وزلات القلم في فهم اللاشعور، البنية الأولية للإنسان، من حيث هو تراث ثقافي متراكم تختزنه ذاكرة الجسد، إلّا أن "الفرويديين الجدد" قد طوروا هذا الفهم للّغة لأبعد من ذلك، ولاسيما المفكّر والمحلّل النّفسي الفرنسي "جاك لاكان"، الذي قال: (إن اللاشعور مبني كبناء اللغة) وهذا التّوجه يزيد من إعلاء شأن اللغة في أساس فهم البنية النفسية، وكذلك المحلل النّفسي والمفكر المصري "مصطفى صفوان" الذي يعدّ من أهم المحللين النّفسيين في أوروبا اليوم، أكّد في كتابه /الكلام أو الموت/ الذي ركز فيه على أن امتلاكنا للتّعبير والإفصاح، هو معيار حياتنا وفعاليتنا، لذلك عندما تتعطل لغة الكلام يكون الموت قد حلّ بالإنسان.

3- المعطى الثّالث للنّظرية النفسية التّحليلية: هو الجنس بما له من أهمية في حياتنا، والتّكلم عنه بصراحة وفق المراحل العمرية أمر مهم للغاية، لأنّه يبقى في حقل اللايقال /الكبت/ والكبت الذي ثبت علمياً، أنه الأصل في كل العلل...

من هنا كان موضوع التربية الجنسية محوراً مهماً للتّركيز عليه في تنمية المهارات الحياتية، من حيث إن الإتقان لأية مهارة يلزم نمو هويّة جنسية سويّة، وتوازن في النّمو النّفسي الاجتماعي، وموضوع التربية الجنسية، الذي يعمل عليه

مبكراً في كل بلدان العالم المتحضّر، التي ما زالت في بلادنا في حكم الثّقافة المحرمة /التابو/.

من هنا تأتي أهمية التربية الجنسية من عمر مبكّر كون هذه التربية تعد الأساس في نمو مفهوم الهويّة الشخصية بعمر مبكر، كونها تهيّئ النّاشئة للأدوار الاجتماعية، التي تنتظرهم في حياتهم ما بعد الدّراسة، فإدراك التّمايز الجنسي هو المنطلق الأولي لنمو مفهوم الهويّة الجنسيّة، فنحن نقول لشخص ما هي جنسيتك، من حيث التّعريف على جواز السّفر لكل شخص، نجد أن "الجنسية" تعني هويّة البلد، سوري، مصري، فرنسي... والكلمة تشير إلى الجنس والتّجانس والجنسية، وكلها تشير إلى الفارق التّشريحي الذّي يميز الطّفل الذّكر، من الطّفلة الأنثى، فهناك العلاقة بين الذات، والذات الأخرى، ابتداءً من العلاقة الذاتية للإنسان مع نفسه، فعندما يفكر لوحده، لا يمكن أن يخرج من أناه في نظر الآخر، فالأنا الفردية، والنّمو الاجتماعي في اتصال مستمر بين الطّرفين...

ومواطننا العربي كمثال على ذلك، ينشأ وليس عنده تصوّرات لذاته من دون الجماعة الفردية، والعكس يجعله منبوذاً، وكل شيء من حولنا يشير إلى هذه المشاركة: السّاحات، الصّلاة، الجامع، الجمعة، الأعراس وطقوس الوفاة والعزاء، وهذه الفلسفة الدّينية التي تحيي روح الجماعة، وتناسي الرّوح الفردية، الآن في برامج التّنمية البشرية، من الملاحظ أنّه يركز عليها من خلال عمل الفريق، والاستثمارات المساهمة في التّنمية المجتمعية وغيرها من الأشكال الأخرى للعمل الجماعي. فالفرد دائماً توّاق إلى الآخر الاجتماعي /القيمة الاجتماعية/ "جاك لاكان" يسميه الأخر الكبير، الذّي هو مصدر شقائنا وسعادتنا، فلا يمكن تلافيه في أي نظرية نفسية، لأنّه جزء من الواقع النّفسي، من هنا أجد مناسباً أن أعرض رأي "جاك لاكان" حول مفهوم الآخر بشقيه الآخر الصّغير /القرين، الآخر الكبير/ الأنا المثالي، فالذات في اتصال دائم ما بين الخارج والدّاخل، فما هو داخلي يصبح خارجي مرات، وما هو خارجي يصبح داخلي، فهذه النّفس ما هي إلّا متواصلة،

وموزّعة في علاقتها في حقل الآخر الكبير، ومن الانفتاح الحاصل من خلال التّأثير الذي يطال المعتقدات والعادات الثّقافية الخاصة بكل شعب، مما يسبب البلبلة والارتباك سواء على الصّعيد السياسي، أو الاجتماعي أو النّفسي.

الخبرة العيادية، والخبرة الحياتية، تؤكدان: أن الإنسان إذا تكلّم قال أكثر مما يعرف، ولكن السّؤال الذي يجب طرحه هنا من أين تأتي هذه المعرفة التي تعدّت حدود الكلام؟

عند المحللين النّفسيين "اللاوعي" مصدر مهم لمعرفة تجهلها الأنا الواعية، من حيث الاستناد إلى التّراث والثّقافة الموروثة عبر الأجيال، حيث أكّدت دراسات "يونغ" عن اللاشعور الجمعي هذا، كما أنّ عالم النّفس التّحليلي "غريزنج" كان له رأي مشابه "ليونغ" حيث وجد أن: محور الأنا، أساس للتّعامل مع الدّاخل والخارج فقوة الأنا، وصلابتها ووحدتها تحدد مدى تعرض الشّخص للإمراضية النفسيّة... فالأنا وفق وجهة نظر "غريزنج" قابلة للتّغيير حسب العمر، والظّروف الخاصة والعامة، كما أنّ "ماينرت" المحلّل النّفسي الشهير يجد الأنا مكوّناً من خلايا متعددة الأجناس ترتبط ببعضها بسلسلة الظّهر الممثلة لمصدر الحركة، ويجد "فرينزي" أنّ: الأنا تظهر منذ الولادة، من خلال ما يسمى "بالأنا البدائية أو الأنا الجلد" ومن ثم تتكون الأنا الثّانوية، التي بحكم الخبرة واكتساب السّلوك يكون الخواء أحد ملامح تفكك الهويّة.

هذه المعرفة بمستويات الأنا يصبح لها قدرة الرّفض، والإبعاد. أي بمعنى أدق يبدو أن "الكبت" مستنداً على قاعدة عضوية لهذه الأنا التي مركزها الدّماغ، المكون من خلايا متعددة الأجناس ترتبط ببعضها بسلسلة الظّهر الممثلة لمصدر الحركة في تفاصيل الحياة اليوميّة. فالتّنشئة الاجتماعية (Socialization) تعدّ من أهم العوامل ذات الصّلة بمفهوم الهويّة والمحافظة عليها، التّنشئة الاجتماعية التي توصف بأنّها: العملية التي تتشكل خلالها معايير الفرد ومهاراته ودوافعه واتجاهاته وسلوكه، لكي تتوافق مع تلك التي يعتبرها المجتمع مرغوباً فيها، ومستحسنه لدوره الراهن أو في المستقبل، كما أنّها من أهم العمليات الاجتماعية، فهي تحول الطّفل

من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، وهي مهمة للطفل، لأنّها الوسيلة التي تمكنه من تحقيق النمو والنّضج الاجتماعي، وهي أداته في الانتماء الاجتماعي ومرجعه في تكوين علاقات مع الآخرين، ثم إنّها في حالة نجاحها وسيلة لوقايته من مظاهر التّأثيرات والسّلوك المنحرف.

التّحديات المتفاعلة التي تمثل الإشكالية المطروحة على المجتمع العربي، لابدّ أن يتم التعامل معها من خلال حلول ذات مقومات متفاعله بدورها تشكل نوعاً من نظام الاستجابة، وتتمثل نواة هذه الحلول في بناء القدرة على صعيد تنشئة الطفولة ورعايتها، وتكون القدرة بدورها هي محصلة قوى الحصانة الذاتية (الفردية والجماعية) وقوى الفاعلية (في التعامل مع التّحديات).

وبناء الحصانة متعدد الأبعاد ويتناول الحصانة الوطنية، وحصانة الهويّة، والحصانة الصّحية... إلى تماسك المجتمع أو تفككه، بل إن وجوده نفسه وهذا يدفع إلى عوامل شتّى أهمها وحدة التاريخ ووحدة الأرض، ووحدة الاقتصاد ووحدة اللغة، ثم التّكوين السّيكولوجي المشترك.

والتّنشئة الاجتماعية هي تلك العملية التي يكتسب الفرد من خلالها طبيعته الإنسانية، كما أنّ الفرد يتمثّل عن طريقها القيم والاتجاهات والأعراف، ومعايير السّلوك السّائدة في مجتمعه. وهي عملية مستمرة تبدأ منذ اللحظات الأولى في حياة الفرد، وتستمر حتى وفاته، فضلاً عن أنّها عملية نسبية تختلف باختلاف الزمان والمكان، وتختلف باختلاف الطّبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد. وتعدّ عملية التّنشئة الاجتماعية البوتقة التي يتم فيها خلق وحدة المجتمع.

سلوك الخواء كأحد ملامح تفكك الهويّة

السلوك الفارغ أو سلوك الخواء "Comport Ement Vide" سلوكٌ يشير إلى فتور وجداني شامل، إذ يسعى الشّخص من خلال هذا السّلوك للسند والإبقاء على توازنه الرّهيف من خلال البيئة التي يتخذها بديلاً من علاقته بالموضوع، ومن أبرز أعراض هذا السّلوك:

– حالات هياج لخلق حياة تنظم السّلوك، إذ يستأثر الهياج تماماً بالشّخص من خلال الانخراط في الأشياء والمواقف الملموسة، هذا السّلوك يستأثر بوساطة البيئة الإدراكية الحركية، من خارج نطاق المحسوس، بعيداً عبر المتخيل، كما تتخلل الألعاب الأنشطة التّخيلية اللاشعورية.

– تفكّك الهويّة: Identity diffusion لدى من يعانون من السّلوك الخاوي يظهر من خلال عدم تحققهم لذواتهم.

كما يحصل ذلك نتيجة لغياب كل من الأنفة والالتزام، وهنا يختبر الشّباب درجة من القلق والشعور بعدم الكفاية، تعني الأزمة بصفة عامة وجود مشكلة، ووفقاً للعالم النّفسي الشّهير "أريكسون" فهي تعبّر عن الضّغوط المعتدلة المرتبطة بحاجات النمو، أكثر من أن تكون أحداثاً متطرفة أو أزمات مستعصية على الحل، وهي مرتبطة بالحاجات البيولوجية والمتطلبات الاجتماعية من جانب آخر، إذ يظهر "الـ Stress"عند ظهور حاجة لدى الفرد تسيطر عليه، وتستشعره بالعمل على حلّ الأزمة عن طريق مهارات جديدة، وفقاً لمتطلبات ظهور الأزمة، ووفقاً للنّضج البيولوجي والمتطلبات الاجتماعية وطرائق حل أزمات سابقة.

أما السّلوك الجامد وعدم القدرة على اتخاذ قرارات سليمة بسبب افتقاد الثّقة في الذات، والضّغط الذي يؤدي إلى الجنوح المتمثل بتعاطي المخدرات، وغيرها من سلوكيات الجنوح كالسّرقة ولعب القمار والإدمان على الخمور و...إلخ، كل ذلك يؤدي بالتّالي إلى اضطرابات نفسية، يكون فيها ذوو السّلوك الخاوي همهم إشباع توقعات الآخرين أكثر من البحث عن ذواتهم، وتحقيقها، فيبدون احتراماً شديداً للسّلطة، ويعتمدون على الآخرين أكثر من المشاركين، ويقبلون ما يقدّم، ويظهرون أنهم محققون لذواتهم. هنا تبرز أزمة الهويّة مقابل اضطراب الدّور الاجتماعي، فنجد المراهق مثلاً يسعى لتحديد معنى لوجوده وأهدافه في الحياة وخططه لتحقيق هذه الأهداف.

وبذلك نجد أن العمل على وحدة الانتماء، تغدو مطلوبة ولها طريقان:

الاتجاه الأول: إمّا أن تأتي بالاتفاق، وإما أن تأتي بقوة المدفع، فإذا كانت بالقوة يعني ذلك أنه ليس هنالك أمل، لأي مستقبل لبلد ما في العصر الحاضر نظراً لاستفحال المدنية العلمية من ناحية، واستفحال الأفكار الدّيمقراطية من خلالها، من ناحية أخرى فلا يمكن لبلد أن يعيش الحاضر، خارج صيرورة الزمان.

صحيح أن حركة الزمان دائماً إلى الأمام، والوحدة الوطنيّة والتّغني بها في كل شيء، بحيث إن المعارض يكون عقابه القتل بالسّيف أو بالمدفع.

الاتجاه الثّاني: المتمثل بوحدة الفكر الإنساني، فلا يكون باستطاعة الإنسان أن يتبدى بالعكس أي بالاعتراف بالاختلافات في الواقع، ومعالجتها بالتّفاوض أو التّعايش لا بالقتل، والاعتراف بالاختلافات والحل الذي يأتي عبر التّفاوض.

في مجتمعاتنا ما زال تشبيه رجل الدّولة برجل العائلة، مع أن هذا الأمر معروف، ومنذ الفيلسوف النّفسي الأول "أرسطو" الذي اعتبرت آرائه غير مقبولة، من حيث أن الرّجل المتمكن من حكمه لزوجته في البيت ولأبنائه، ليس مؤشراً على أهليته لحكم المدينة، والعكس بالعكس، ففي بلادنا الدّكتاتور، لا يحاسب على أخطائه، بل على عكس ذلك نجد الثّقافة الشّعبية الشّفوية تكرّس في بلادنا: أن زعيم البلد وحده هو المنقذ للبلد، وأيّة مخالفة لرأيه تعدّ خيانة، فطاعة الحكام سنة، وهو بنفسه لا يتعلّم من هزائمه، ولا توجد معه سوى الكارثة، وبذلك لا يوجد تصحيح ولا تناوب على الحكم طالما نحن مأخوذون بالأب المثالي، وبفكرة الوحدة في كل شيء، كاستمرار الرأس متحكماً بالجسد، فهذه هي الصّورة البدائية لسياسة الحكم في بلادنا.

فكلمة أب تقتضي نظام قرابة، هو نفسه على قطيعة مع كل نظم الطّبيعة، وليس المفروض بالأب هنا أن يكون الأب البيولوجي، بل إن من يعطي اسمه للابن هذا هو الأب الواقعي، أوردت هذا التّفصيل لأصل إلى أن النّظام العائلي العربي هو نظام بطريركي بالدّرجة الأولى، أمّا نتائج التّغيرات العلمية، فلم تظهر

آثارها بعد على مجتمعاتنا العربية كما هو حاصل في الغرب، إذ يوجد في الغرب حالات قلق واكتئاب شائعة وموصوفة في دراسات ويوميات العياديين، أما في الشّرق، فتواجهنا الحالات العصابية التقليدية كالهستيريا، والفوبيا، وهذا عائد إلى دور الأب الذي يضعف في العالم كله، وبالتالي خفت فعالية الزعامة، فعلماء النّفس الاجتماعي لديهم شبه إجماع على تضاؤل دور الأب الواقعي في الحياة الاجتماعية في الدّول المتقدمة، إلى جانب تكامل وتعاظم دور الأم في التّنشئة والرعاية، وبذلك من الملاحظ تدهور دور الأب تحت وطأة الخطاب العلمي والدّور الواقعي في الحياة الاجتماعية، بسبب سيطرة القانون / بديل الأب الرمزي، إلى جانب تكامل، وتعاظم دور الأم في حضورها، من حيث مسؤولية التّنشئة التي تشكّل الموضوع المركزي للأسرة، وبالتّالي سوف يكون تدهور الأب تحت وطأة الخطاب العلمي، كون الدّولة في المجتمعات العصرّية باتت تأخذ دور الأب المثالي والواقعي، في الوقت نفسه بمعنى أنّه إذا أراد شخص ما شيئاً يطالب به الدّولة وليس أباه، وتبعاً لذلك فإذا ما صفع أب ولده يحق لهذا الأخير أن يقدم شكوى ضده في هذه البلدان تبعاً لشرعة وثقافة حقوق الإنسان، أي أن هناك تعاش رقابة ونوعاً من الحق المعطى للابن، على أن الدّولة تعطي أوامرها للأب الواقعي، وتفرض عليه نموذج تربية أطفاله، من هنا إن تراجع دور الأب في العائلة العربية، من حيث إن الأبناء يقومون بما كان الأساس في صميم مسؤولية آبائهم، ليغدو الفهم الراسخ للأبوة أن على الأب حماية الابن، وبالتّالي فهزيمة الأب على الصعيد الرمزي، والواقعي في آن واحد، تُحدث فقداناً تاماً للثقة بالمشروع الأبوي سواء في السلطة أم خارجها، يدرك ذلك لكلّ منّا من خلال نقمة الأبناء على فعل آبائهم في الزمن الماضي، وإعطاء السطوة لتدمير البلد، بدون مقاومة تذكر.

لذلك بقدر ما يكون الأب، على مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه أمام الطّفل، في محاولة المطابقة مع صورة مثال الأنا، تصبح خيارات الطّفل تتمثل بتحقيق هذا المثال في الشّخصيات التي يقبلها في المجتمع، وهناك عدد كبير من

الشبان الذين يطابقون "مثال الأنا" في الواقع مع شخصيات غير متوازنة أو غير سوية، وهذا عائد إلى خلل في موقع الأب داخل الأسرة، وكذلك إلى خلل في الحياة الاجتماعية في كل مراحلها وظروفها لدى الطّفل، فإن ظهر الأب مغلوباً على أمره، فهذا يزيد الطّلب على الأب المثالي، وهنا ندخل في طلب لا نهاية له، لذلك فإنّ أي هزيمة تلحق بأي حاكم ستشكل نكسة عند جماهيره، لأنهم سيعتقدون أن أسلوب حكمه لم يكن كافياً لإنقاذ شعبه.

بذلك نجد أن الناس في بلادنا، لا يملكون في الواقع تجربة الدّفاع الجماعي عن مصالحهم، فمثلاً الطّالب عندنا ليس عضواً في لجنة الدّفاع عن حقوق الطلبة، وليس الأستاذ عضواً في نقابة للدّفاع عن حقوق المعلمين لها فعاليتها في الواقع، وبالمقارنة نجد الغرب كله عبارة عن جماعات تدافع عن حقوقها، ومن ذلك نصل إلى أن واقع الحال في مجتمعنا يبيّن أنّ تجربة التّضامن للدّفاع عن المصالح غير موجودة.

ومن هنا تأتي الخطورة التي تهدد الانتماء، على اعتبار أنها تُعاش كهزيمة للأب، لذلك نتيجة هزائمنا تجعل الناس يتجهون نحو الدّين بمعنى الرجوع إلى الأب المثالي الذي لا يغدر بهم، لذا نجد اليوم أو في الفترة الأخيرة موجة إسلامية عمّت العالم العربي أجمعه، حيث أفقدت قدرة الفرد على التّمييز، وأصبح أسير الطقوس، فلا يستطيع التّحرك إلّا بإذنها، حيث فقد حرّيته الشخصية وضاعت ذاتيته في لبوس الانتماء للجماعة...

لذلك نجد اليوم أنّ حاجة شعوب المنطقة للحرّية تعلو كل الحاجات رغم الموت والإذلال، فهذه الشّعوب تعيش في حداد مستمر على الحريّة منذ عهود، وواقع الحال هذا قد بلغ حداً صعباً لا يمكن لأحد إنكار وجوده. في مقابل ذلك بات واضحاً أنه ليس من مجال للمعارضة السياسية إلّا عن طريق الدّين، أو طلب الحقوق الدّينية، فالإخوان المسلمون يستغلون هذا الموقف إلى آخر المدى، وبالتّالي أخذ العنف شكلاً جديداً باسم المقدس كما شهدناه على الساحة المصرية

والتونسية ولكن بشدة أخف، وخير شاهد على فعالية الدين في السياسة هو قيام دولة إسرائيل، كونها تجسّد دولة حكم قائمة تبعاً لمعتقداتها الدّينية، تغذّي هذا العنف المقدس، لأنها قامت على أسس دينيّة، ومن جراء ذلك حصل الفعل وردة فعل لم ننتهِ منها بعد.

وإذا حاولنا الرّجوع إلى الوراء، نجد أن جميع حروب العرب، كانت حروباً قومية ضد الأجنبي، أما اليوم لم تعد هذه الحروب، تؤدي دورها وتثير الجماهير بالحماس الوطني لها، إذ هذه الروابط حولت الثّورة في بلاد عربية من وطنية قومية إلى دينيّة، كما في تونس ومصر، وهنا السّؤال هل الإسلام تعدى الأهداف التي حددت له في البداية، وأصبح الدّين بدلاً من أن يكون وسيلة أصبح منهجاً معمماً، وحتى مفروضاً على الجميع، فاللجوء إلى الإسلام أو انتشاره يبقى الحاجة الوحيدة، التي يجد فيها الناس العلامة التي تفرق بينهم، وهذه العلاقة نحاول إقصاءها لذلك يجب ابتداع طريقة ما، أو تكتيك جديد. ولهذا كان السّبب للتّجانس الإسلامي كردة فعل على نتيجة التّجانس العالمي اليوم الذي لم يعد مجالاً لمعنى الانفراد، والذي يتحول إلى فكرة كرة الثّلج التي تكبر أكثر وبازدياد دائم، وممكن أن تتحول إلى سلطة الأنا الأعلى، وتتحكم بالمجتمع، ومن هنا نجد أستاذ الجامعة مؤخرا يلجأ للبسملة في حديثه، لكي يعطي نفسه الإذن في الكلام، وإلاّ قد يرتبك في الكلام ويصيبه العجز في إتمام فكرته واستعراض حجته إن لم يستأذن الإرادة العليا، إرادة الرّب، وهذا أسطع المؤشرات على الإفلاس المتجسد أمامنا اجتماعياً...

في السّنوات العشرين الأخيرة أو أكثر، ظهرت رؤى ودراسات مختلفة حول النّظرة للعالم، وصراع القوى ومحكات الانتماء، وسوف آخذ مثالاً "هنتيغون" الذي تكلم عن صراع الحضارات، وقال إنها ناجمة بالفعل عن صراع الحضارات، انطلاقاً من عولمة النّموذج الأمريكي، والخصوصية التي تفتش عنها الشعوب النّامية... من إقبال الحضارات أو الثّقافات على الصّراع، هو في الصّميم متمثل بصراع القوة، "فهنتيغون" تكلم على أن الحضارات بما هي كذلك تتصارع.

وهذا كلام ممكن أن نجد له تفسيراً من وجهة النّظر النفسية التّحليلية، كون النّظر لما يحصل ويعاش يتمثل بأن الصّراع هو صراع القوي والضّعيف، المتحكم والتّابع، التي تتوقف عليه جميع أوجه الحياة بما فيها الوجه الحضاري والثّقافي والمعتقدات، فالقوة التي نراها ليس فقط العسكرية، إنما القوة التي تتسلح بامتلاكها الخطاب العلمي، لأن العرب اليوم يواجهون أزمة بالنسبة لتخلفهم في هذا المجال، فهم غير قادرين على صنع سيارة أو هاتف جوال أو... ومن هنا تبرز مشكلة تخلفنا كعرب من التبعية للغرب في كل شيء، والانشغال بالخلافات الضّيقة، والملاحظ أنه ليس هناك صراع بين رجال الكنيسة ورجال الدّين الإسلامي، في (مكة والأزهر وقُم)، فالخلاف بينهم ليس جوهرياً، ولكن الخلاف الحاصل الذي يعمل عليه المتنفذون المنتفعون من إثارة التّفرقة دائماً في صفوف الشّرائح الاجتماعية، هذا الخلاف كان يجد له تغذية وتوظيفاً من قبل الحكام في بلادنا، لأنهم يدركون أنه بسلطة الدّولة والحكم تستمر الخلافات بين الجسد الواحد من أبناء البلد، ومن هنا نصل للقول إن المشكلة الجوهرية التي علينا إبرازها، ورؤيتها بوضوح إن العالم العربي أننا لم نتحصل بعد في السّيطرة على الطبيعة، بعد استثمار مواردها بما يخدم إنسان المنطقة، وهذا بارز بقوة إن عدنّا إلى التّاريخ العربي، فالفلاسفة العرب القدماء لم يفكروا في السّيطرة على الطّبيعة، وهذه الفكرة لم تأت إلّا مع بداية الثّورة الصناعية، ومن هنا يبرز سبب القوة التي امتلكها الغرب علينا، حيث نجد أن الصّراع ليس صراعاً بين ثقافة وثقافة، بل يفرض الواقع نفسه اليوم علينا أن لا نغفل عنه، بأن هناك تطوراً علمياً، لم يحصل في مجتمعنا، وهذا أعطى للغرب قوة، وأدى إلى قلب مقاييس القوة، لاسيما بعد اختراع البارود مما عزز سلطة الملوك، هذه السلطة التي تكرست نتيجة لتكوين الولاء للملك أو الرّئيس، مما أدى إلى تكوين دول ترضخ لسلطة الحاكم في واقعنا العربي.

وما زلنا إلى اليوم نرى في أنفسنا الضّعف والتّبعية للغرب وصناعاته، كوننا مازلنا نعيش في مجتمع ليس به أي موضوع يعبر عن إنتاجنا، أو عن رغبتنا لنرى

أنفسنا فيه، من هنا ينكر علينا الاعتراف عن طريق الإنتاج، فعندما لا يكون اعتراف بإنتاجنا ماذا يبقى؟ لاشك سنبقى بذلك نستمد قوة بقائنا وانتمائنا، من فكرة الهويّة والوفاء لذاكرة جوفاء...

من هنا يأتي الدّولار كديانة جديدة "طوطم" جديد، يتم التّوحد عليه في ثقافة عولمة الاستهلاك، والمتعة، ولذلك لكون الدّولار هو: العملة النّقدية الأمريكية، أمريكا التي تتزعم العالم بسيطرة الاستثمارات وهيمنة العقل الديني اليهودي المتعصب عليها، وتبعاً لذلك نجد الدّولار قد تعدّى قيمته المادية، وأصبح له هالة قدسيّة، لأنه يجسد الوعد على الأرض، وإذا حصل الفرد عليه، لا يعود يشعر بغربة في تجواله وتحركاته في العالم، وهذا ما صوب العداء للأمريكان على اعتبار أنهم وجدوا "بالدّولار" محسوساً مادياً يتنافى مع الرّوحي، وسادت في سياساتهم التّوظيفات لنظرية نفسية تربويّة "البراغماتية" التي تقطع الإنسان عن أصله وانتمائه لوجوده في مسار الظّاهر ومتعة الزّمن الحاضر...

وبذلك سادت ثقافة الاحتكار "احتكار الهي" مصدره الجنة على الأرض وليست في السّماء، حيث إن الجنة ملاذ دائمة يطالب بها الشّخص، وحسب مستوى امتلاك الدّولار في جيبه، تصبح الجنة ملك يديه، من هنا يغدو العنف اليوم ظاهرة عالمية، ومرهوناً بالاحتكار، فهي حالة واقعية مهما تعددت أشكالها ونسبها، فالعنف في بلادنا ظاهرة بارزة. ومن هنا نلاحظ بحرقة أن ثقافة البلد تدّمر والانتماء بالتّالي يتشوه، ويتعمق الشعور الفردي بالاغتراب، إذ يجد كل منّا أنّنا نعيش في مجتمع ليس فيه أي موضوع يعبر عن روحانيتنا وقيمنا حيث باتت الأصالة تهمة، والخشية اليوم من أن العملية النفسية الحاصلة عند الكثيرين، لاسيما الشّباب تأخذ مرجعيتها ومقاربتها عبر التّماهي مع الغرب في الملبس والمشرب والمسكن والمأكل، التي أصبحت لها انعكاساتها على الوقع الجغرافي أي على الأرض، ولما كان هذا الشّأن مهماً وضرورياً لفهم الأخر، ولمحاكاة حضارية أن نتلاقى بها مع الآخرين على هذا الكوكب، فإن علينا التّذكير أنّ مبدأ المطالبة بحقوق الإنسان لبشر يختلفون عنا في

اللون، والشّكل والوطن والطّبيعة واللغة، لا يمكن أن تتحقق من دون التّماهي بهذا الأخر، لذلك فعند إدراكنا لهذا المبدأ يمكننا عندها أن نتحسس آلام الإنسان ومعاناته، ونتفهم الظّلم والضّرر الذي يلحق به.

ومن هنا أبوح لكم بتساؤل كان يراودني كثيراً، ألخصه بما يلي: ما مدى استطاعة السّوريين انطلاقاً من مناطقهم الجغرافية، بكل ما تحمله من قيم عقائدية مختلفة، التّماهي ببعضهم، عندما كانوا يسمعون بمجزرة أو مصيبة حدثت في السّنيين الماضية على طوائف ومناطق مغايرة؟

هذه الحالة تسمى في علم النّفس التّحليلي (مثال الأنا)، التي تمثل نقطة ارتقائية يتوجه نحوها الجماهير لتشكل هذه النّقطة في النّهاية: القوة المحركة، التي لا يمكن الوصول إليها دون تخطي الحواجز النفسية الداخلية، التي تصب إليها الأنا الذاتية، ولمصلحة هذه الأنا، والمعروف أن هذه النّزعة، تشكل عقبة كبيرة في العمل السياسي، وكذلك الاجتماعي كون أن الحواجز العائلية ومصلحة القرابة، وحواجز الهويّة والطّائفية لها الانتماء الأصل، حين يكون الخيار قائماً بين الوطن والطّائفية، وهنا نطرح "أن يدين المواطن لوطن على قياس الطّائفية، فيضحي بالوطن الكبير، أو يريد وطناً يحتوي الطّائفية، بمعنى الانتماء الطّائفي الذي يلغي الوطن، ولكن حتماً الانتماء للوطن لا يلغي الانتماء الطّائفي". من هنا تبرز الإشكالية في التّجاذب والتّناحر بين الأنا والآخر، من خلال تشويه صورة الآخر وإقصائه، أو كان الصّراع معه جهراً أم خفية، حين نريد تعزيز صورة ذاتنا، كون الاحتفاء بالذات وتحقيقها لا يمكن إلّا بحفر قبر للآخر خاصة المختلف عنا، أما آن الأوان أن نعي أنّ كينونتنا لا تتشكل إلّا بوجود هذا الآخر، ووفقاً "لأريكسون" عالم النّفس الشّهير الذي يؤكد أنه: بدءاً من الطّفولة الأولى ومراحل النّمو النّفسي والاجتماعي التي ميزتهما وفقاً لمراحل النّمو الزّمني والجنسي إلى النّفسي الاجتماعي، وأثرهما على نمو الأنا كما يلي:

– في السّنة الأولى من العمر تسمى المرحلة الفموية من حيث النّمو النّفس جنسي، ويمر بمرحلة الثقة أو عدم الثقة من حيث النّمو النّفس اجتماعي، وهنا الأنا وفق فعالية النّمو تعيش الأمل.

– أما في المرحلة الشّرجية: فإنّ النمو الاجتماعي المقابل هو الاستقلال مقابل الشعور بالخجل، والفعالية المقابلة المتمثلة بالإرادة الأوديبية القضيبية المتمثلة بالمبادرة والشعور بالذّنب، وفعالية الأنا تغدو عرضية هنا...

– مرحلة الكمون الممتدة ما بين/ 3–6 / سنوات من حيث النّمو النّفس اجتماعي الذّي يعاش كفاية مقابل الشعور بالنّقص والفاعلية المقابلة في القدرة.

– مرحلة المراهقة ما بين / 10–18 / المراهقة ويقابلها نمو الهويّة أو اضطراب الدّور، وهنا يبرز تفاعل الأنا المتمثل بالإيثار والتّقاني، حيث الشّباب المبكر يتمثل بالمودة والألفة والعزلة، أمّا فعالية الأنا فتتمثل بالحب في أواسط العمر المعبر عن هذا الحب، الإنتاجية، مقابل الرّكود، لنجد أن فعالية الأنا هنا تتطلّب الاهتمام...

– مرحلة الرّشد المتأخر، ويقابلها في النّمو النّفس اجتماعي، تكامل الذات مقابل اليأس، من هنا فعالية الذات تعيش الحكمة وليس فقط المعرفة والإنجاز.

– تفكّك الهويّة، يحصل نتيجة لغياب كل من الأزمة، والالتزام، بحيث يخبر الشّباب درجة من الشعور بعدم الكفاية والسّلوك الجامد، وعدم القدرة على اتخاذ قرارات سلبية، لافتقادهم الثقة في ذواتهم. والضّغط والجناح لتعاطي المخدرات، والاضطرابات النفسية...

فبالنسبة إلى الأطفال في عمر الطّفولة والمراهقة المتأخرة وعمر الشّباب الأول أي ما يعادل المرحلة الاعدادية والثّانوية في بلادنا.

لوحظ لدى العديد من الزملاء من المرشدين النفسيين في المدارس ممن عرفتهم وتبادلت الأحاديث معهم حول المشاكل النفسية المتشكلة في أواسط الشباب

كانعكاس للأزمة السياسية الدائرة في البلاد، كان إجماع الإجابات يدور حول أنّ إثارة النّقاشات المتصلة بالأزمة القائمة سياسياً، تزيد من تفاعلهم مع الحدث، وردود الأفعال لديهم نجدها تختلف وفقاً لقدراتهم ولمستوى الأذية اللاحقة، والعامل الذي له الأثر الأهم يتصل بأساليب تّنشئتهم الأسرية السّابقة في ظل حياتهم في الظّروف الصعبة، ولكن قبل المرحلة الدّراسية أكثر ما يزعج الأطفال وفق دراسات عالمية مختلفة، يتمحور حول المناظر المرعبة للموت والدّمار وكذلك أصوات القصف والانفجار وأصوات سيارات الإسعاف، التي تثير خيالات لا متناهية، تجعل الرعب يجتاح كامل الشخصية، لتنعكس على تفكك وتماسك الجسد والنفس، كعلامة على سوء التّكيف ومؤشر مباشر لتداعيات الحدث الصّادم.

فالأطفال بعد هذه المرحلة لا يمكنهم في الواقع التّفريق بين الواقع والخيال بسهولة، كون تجربتهم ومفاهيمهم العامة مازالت غير متحققة بالقدر الذي يشكل لهم الفهم المعقول لما يحصل أمامهم، لذا يلاحظ أنّه يصعب في بعض الأوقات الفصل بينهما (أي بين الواقع والمتخيل) لديهم عن هذا الواقع، فقد يخلط الطّفل مرات بين مشهد من فيلم مخيف وبين منظر من مناظر الأخبار، وبين ما عاشه بسبب وضوح الصّور المنقولة في ذهنه ووعيه لِمَا حدث.

وتبعاً لهذه المؤثرات يصبح مفهوم الأنا محكوماً بمتغيرات عدة سوف تتم الإشارة إليها فيما يأتي عبر عرض طروحات علمية لعلماء النفس كان موضوع البحث في مفهوم الأنا لديهم هو قضيتهم الشاغلة...

ومنهم على سبيل المثال باسكال الذي يعرض لخصائص الأنا من كونها "مفهوماً أولياً مؤسساً للهويّة" كما يلي:

1- مُضايق للآخرين من حيث أنه يريد استبعادهم، فكل أنا هو عدو، لذا هو يريد أن يكون المسيطر على الكل.

2- كل ما هو خارج عنّي هو عدوّ لي: فالضّد بالضّد يعرف، ومطلب الإنسان الواعي هو المعرفة.

ويبقى السؤال الجوهري يكمن بـ: لماذا نحارب من هو ضد ما نحمل من قناعة؟ وللجواب على ذلك من خلال قراءة متأنية لما حولنا أجد أنّه: إذا ما خالف الفرد أهداف جماعته، فإنّه يواجه الإقصاء والإبعاد عن السّرب، والذات لكي تكتمل وتحقق وجودها، فلا بدّ أن تعي مفهوم الذات الجمعي، وتحاول الانسجام معه ومع معطياته، وفق ما أطلق عليه "كارل بوبر": الحس المشترك.

وهذا الحسّ المشترك لكي يفعّل ويعاش واقعياً وتثمر أهدافه، لا بدّ له من حامٍ للمشتركات بين بشر يعيشون في موقع واحد وتجمعهم قواسم كثيرة، وبعدها لابدّ أن نصل إلى الحديث عن بنية الجيش الحامي والمربوطة قيادته وقراره بقرار الحاكم، وتفرد رؤيته ونظامه وإقصاء المعارضين لهذه الرؤية.

ومن يتبع تاريخ مؤسسة الجيش بصورة عامة في أي بلد يصل إلى أن: بنية مؤسسة الجيش، بنية هرمية تبدأ بالقاعدة وتنتهي برأس الهرم، وبذلك تماسكها يعود إلى تيار ذي قوة عمودية ينتهي برأس الهرم، وقوة أفقية تربط الأفراد فيما بينهم، فدور الجيش في أذهان السّوريين مثلاً، أصبح بصورة عامة دوراً مزدوجاً، وذلك لأنه قام بحماية الوطن من الاعتداء الخارجي وكذلك بحماية المواطنين من بعضهم عندما حلّت الفوضى في بعض المناطق، فالمهمة الثّنائية للجيش: الدّفاعية والتّوجيهية وضحت لنا. وبالتّمعن بموضوع الجيش الذي يتمثّل الولاء له في أي بلد على أنّه سمة وطنية، فالخدمة العسكرية في بلدنا على سبيل المثال، لا تقتصر على التّدريبات الميدانية، حيث الجيش يستقي قوّته من التّراتب الهرمي، الذي يجعل القائد في قمة الهرم يوزع المحبة بالتّساوي، والتّسلسل الأبوي من القاعدة، فكل قائد هو بمنزلة أب للعساكر، وهو نموذج يتماهون به، كونهم يعدّونه قدوة، وفي الوقت نفسه يفترض به أن يضمر لهم الحبّ ولا يغامر بهم، بل يتحمل مسؤوليتهم عند تعرضهم للخطر.

فالعلاقة الحبية هذه تتلخص بالتّنازل عن الأنانية، ومراعاة شعور الحبيب فوجود هذه العلاقة العاطفية هو أكبر ضمانة لتماسك المجموعة، وصمودها ضد

أخطار التّفرقة، وهي أكثر دواماً من العلاقات القائمة، على المصالح المشتركة، فبمجرد أن تنتهي تصبح التّسوية ملغاة وتتفكك المجموعة.

– وتبعاً للمنظور النّفسي التّحليلي "إنّ العلاقة العاطفية المعتمدة على التّماهي المشترك والمجردة من أيّة نزعات جنسية، تكون مبعدة، لأن "اللبيدو" الطاقة التي تربط الأفراد ببعضهم مكفوفة، ومجردة من أهدافها الجنسية، من هنا يبدو التّفاني والتّضحية، والتّخلي عن حبّ الذات والأنانية، هذه الصّفات الشّاملة من صفات الجيوش، ومن صفات تعاليمها، من هنا يبدو إبعاد الجنس إلى خارج المؤسسة العسكرية من الضّروريات لأنّ التّماسك يستمد منه قوة، وهو ما يسمى: التّسامي "Sublimation"...

اللغة ومفهوم بعد الهويّة

اللغة تبعاً لمفهوم التّسامي أهم قواسم الانتماء والهويّة، الإنسان واللغة حياة وجود، فالإنسان كائن ناطق، وسمة النطق لديه، مماثل لوجوده، نسمع من يقول بأنّ الإنسان مسكون باللغة، ولتوضيح ذلك سأحاول أن أرصد موقع اللغة في حالتي السّواء والمرض في حياة الإنسان، فمن المعروف أنّ البحث في مواضيع اللغة، من المباحث التي لا شكّ كانت مؤثرة وستبقى في ميادين العمل النّفسي، لأنّ البحث في اللغة هو صلب العمل في التّشخيص النفسي للأمراض المختلفة، وكذلك مبحث في العلاج، لأنّ الإنسان مسكون باللغة، ونحن العرب غربتنا في لغتنا كغربتنا في أوطاننا، لا شكّ أن اللغة هي وعاء الفكر، ومحتواه حيث إن الباطن والظّاهر من اللغة، هو ما يشكل المخزون الفكري في أيّة ثقافة، كما أنّ القدرة على التعبير هي مهارة تنضج بالتّنشئة، ولكن قبل تنمية اللغة، لا بدّ من الوجود في اللغة، واللغة رموز ودلالات، وكذلك استعارات وكنايات، كما هي ثقافة الإنسان كذلك، فالإنسان كائن ثقافي تتأكد ثقافته بمقدرته اللغوية، "لاكان" كان يؤكّد على الوجود من خلال الكلام ومن خلال إشارته المهمة، على عظمة

الإنسان المتكلم، والعلامة "مصطفى صفوان" في كتاب له بعنوان (الكلام أو الموت، ترجمة د."مصطفى حجازي" وهذا التعبير (الكلام أو الموت) هو تعبير نفسي تحليلي لاكاني، "صفوان" يؤكد في كتابه هذا كيف يصبح العنف شرطاً إنسانياً ضمنياً لدى هزيمة الكلام، تعبير "لاكان" النّفسي التّحليلي حول كون الكلام: رسالة سياسية فعلية بين الذّوات، وبين الحاكم والمحكوم متجاوزاً السّياسة بالمعنى الشّائع وصولاً إلى الدّيمقراطية الفعلية. من هنا كانت أهم إسهامات "لاكان" للغة الفرنسية إثراءً فكرياً من خلال الجو الفكري الذي كانت تثيرها سيمنيراته الأسبوعية في باريس لسنوات طويلة، لدرجة أعطته شعبية كبيرة، وانتشاراً لفكره في فرنسا، وكاد يكون من الشّخصيات الأولى التي أثرّت على الفكر في فرنسا المعاصرة، هكذا تكون اللغة هي محتوى للفكر، وتطويراً له ليصبح ثقافة حياتية، وبذلك تصبح اللغة مسكونة في الإنسان، مثلما الوجود للإنسان يعبر عن نفسه من خلال الكلام، ومن خلال كل السّكنات، والحركات التي تختلج بالجسد حيث تصبح اللفتة، والهمسة وكل نبضة من الجسد تعبيراً عن مخزون لغوي حقيقي، يعبر عن نفسه في الحالة المرضية، وتأخذ هذه التعبيرات طريقاً، لينطلق التعبير بالكلام الطليق مع تقدّم المتابعة النفسية، وتحرر المريض من السّتار الذي كان يطبق على صدره، ومن ثم لسانه، فالعمل على اللغة هو عمل على تطوير الشخصية، وهنا أستعير قولاً شهيراً للمحلل الفرنسي الكبير "جاك لاكان" بأن اللاشعور مبني كاللغة، وبرأي "فرويد": اللاشعور نسق أولي للشّخصية، وهو الركيزة الأساسية التي بني عليها التّحليل النّفسي، حيث إن رصد دينامية اللاشعور في الشخصية، هي الخطوة الأولى للمحلل النّفسي كي يحسن استعمال التقنيات التّحليلية، المستندة إلى التّداعيات الحرة للأفكار من خلال الكلام، ومشتقات اللاشعور من خلال الأحلام، وكذلك زلات اللسان وسلوك التّكرار، واللاشعور من الزاوية الاقتصادية للجهاز النّفسي، يمثل الطاقة الأولية التي تستمد منها الشخصية، حيويتها السّيكولوجية والذّهنية...

تماسك المجتمع أو تفككه، بل وجوده نفسه إنّما يدفع إلى عوامل شتى أهمها وحدة التاريخ ووحدة الأرض، ووحدة الاقتصاد ووحدة اللغة، ثم التّكوين السّيكولوجي المشترك.

والتّنشئة الاجتماعية هي تلك العملية التي يكتسب الفرد من خلالها طبيعته الإنسانية، كما أنّ الفرد يتمثّل عن طريقها القيم والاتجاهات والأعراف ومعايير السّلوك السّائدة في مجتمعة.

وهي عملية مستمرة تبدأ منذ اللحظات الأولى في حياة الفرد، وتستمر حتى وفاته، فضلاً عن أنّها عملية نسبية تختلف باختلاف الزّمان والمكان، وتختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد.

وتعد عملية التّنشئة الاجتماعية البوتقة التي يتم فيها خلق وحدة المجتمع أو تفككه واتصال أجياله أو انفصالها، عبر الموروث الثّقافي والقيمي ومن أهم أدواته اللغة... وبذلك يكون العمل على الحضور الثّقافي لأية أمة ينطلق من بناء لغتها أي بناء إنسانها، وتحقيق خصوصيته... ولا يخفى على أحد ما تبذله فرنسا لتكريس لغتها ونموها وانتشارها، وكذلك لا يخفى على النّاطقين باللغة الانكليزية، كيف تتطور اللغة الانكليزية المستخدمة في أمريكا حتى أنها تكاد تأخذ لكنة جديدة، وتنمو لتكون لغة لها خصوصيتها، فالإنسان يتطور باللغة وتتطور به، ونتاجه العملي والصّناعي والفلسفي والأدبي، والسّينما والميديا...

إنّ المريض النّفسي، وكذلك المريض العقلي أكثر ما يتأثر لديهم من مهارات هي مهاراتهم اللغوية، هذا ما أستطيع تأكيده من خلال خبرتي العملية مع الأطفال التّوحديين والأطفال المتأخرين عقلياً، ونجد أنّ أكثر شكوى لأهل هؤلاء الأشخاص حين طلب الاستشارة لتقييم وضع ولدهم، نجدهم يشكون دائماً من سوء كلام أطفالهم، فهم يقبلون ابنهم أو ابنتهم بأن يكون / تكون، غير قادر/ قادرة على الاستقلال عنهم في مسألة الخروج، والتحكم بالتّبول والتّبرز، حتى ولو بلغ عمرها أو عمره عشر سنوات، كما أنّهم يقبلون هؤلاء الأولاد وهم لا يستطيعون الأكل

بمفردهم، وكذلك يقبلون سلوكيات أبنائهم الصعبة المتعبة، ويطلبون العمل على تطوير اللغة، حيث إن العجز اللغوي عند أبنائهم هو تكريس مؤكد لديهم بحجم المصاب الذي فجعوا به بمصاب ابنهم...

إنّ اللغة من حيث الاستقبال / الإصغاء للتداعي الحر لمريضنا من أهم أدواتنا في عملنا العيادي في العيادة النفسية التحليلية، حتى يكاد المريض يفكر بما حصل له من راحة من جلسة لأخرى، رغم أنه لم يأخذ أيّ دواء، يجد بصورة جلية وكأن قدرة قادر تدخلت وأرجعت له تماسكه، من خلال رجع كلامه أمام المحلل النفسي بدا انعكاسه وعياً عليه، منحه قوة لا تضاهى، يتلمسها عندما تحرّر عقدة اللسان وبدأ بالإفصاح عن مخزونه المكبوت، لينعم به قوة، وحرية وجمالاً في النظر للنّفس والآخرين، وبالتالي يحصل الشفاء وينعم بالصّحة النفسية والتّكيف، إنّ الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم من آيات الله التي تحدى بها المسلمون أعداءهم بلغة الضاد التي نعتز بها، وهي القاسم المشترك الأعظم الذي يجمعنا وبالعودة للبدء يقول يوحنّا في الإنجيل المقدّس: في البدء كان الكلمة، ونعرف أنّ النبي موسى عليه السلام كلّمه الله فهو في الديانة اليهودية كليم الله...

أبعاد أخرى في النظر للهويّة

إضافة الى الطّروحات السّابقة حول الهويّة هناك طروحات أخرى مهمة حول الهويّة والانتماء من مثل: طروحات "هيغل" حول الهويّة التي تبرز من خلال إبرازها للبحث في هوية الوجود والفكر عنده، الهويّة عند "هيغل" ليست هوية مباشرة لا تعرف تمايزاً، وهو يقول إن الفلسفة ليست مذهباً في الهويّة، بل نشاطاً وحركة طرد، وتنافر فهوية الوجود والفكر ليست هوية لا يعتريها تغيير.. ولكن الاختلاف/التمايز داخل الهوية، لا يقل عن تفاعل الهوية نفسها، بل إن "هيغل" يقول: إن للفكر والوجود، هوية واحدة من حيث الجوهر والاختلاف/تمايزاً من حيث الجوهر أيضاً. الجوهر نفسه يجب فهمه باعتباره وحدة للهوية والاختلافات (ص6، هيجل، أساليب

الفلسفة التاريخية) الفكر عند "هيجل" هو عملية إنتاجية واقعية، لا تعبر عن نفسها في اللغة فحسب، بل في تغيير الأشياء، وصنع الأحداث أيضاً، أي في خلق الثّقافة الروحية المتجسدة مادياً، فالمدن بمنازلها وصروحها فكر متجسد في الحجر، والآلات فكر متجسد في المعدن، والمؤسسات الاجتماعية والقانونية والسياسية هي الفكر في أشكال آخرته (7، هيجل) فالفكر يتموضع خلال العمليات العقلية في مادة حسيّة، وتكون الممارسة لعيش الفكر من خلال عملية تحويل الأشياء والأحداث وفق مفهوم ووفق خطة، فكل تاريخ الحضارة هو تجلٍ خارجي لقوة الفكر، لمفهومات الإنسان وخططه وغاياته...

ويبقى الدّور الإنساني يتجلّى بما هو داخل بوساطة العلاقة الجزئية للإنسان بالوجود، أي بالجنس الإنساني أي بالبشر الآخرين جميعاً، إذ إن طابع هذه العلاقة شديد الدقة، إن الوجود يمثل في ذاته، وجوداً يتعيّن إنجازه على نحو عيني، أي تعيناً، وكذلك غاية يوجد بالنسبة إليها كل إنسان مفرد، داخل نمط معين من المطابقة، وانعدام المطابقة...

والجنس بوصفه وجودياً، هو العنصر بمعنى الوسيط الذي يتحرك داخله أفراد البشر، والذي بوساطته يدخل كل واحد منا، في علاقة مع الآخرين (212، هيجل)، فكل موجود فيها إنّما هو وجود، من حيث الماهية لأجل موجود آخر، وبوساطة موجود آخر، الموجود الآن متعين، في وجوده والموجود الآخر، يعنيه في وجوده، بحيث هذا الذي دخل عليه التوسط، هو نفسه لحظة أساسية، من لحظات ذات الذي يتوسطه، وكل لحظة هي جملة من المتوسطات..

أما ابن عربي: أبو بكر محيي الدّين محمد بن علي بن عربي الذي عاش ما بين /1164 – 1240م/، الملقب بالشّيخ الأكبر يرى أنّ:

النّفس والروح، هما عند ابن عربي شيء واحد، جوهر بسيط، النفس عنده جوهر عاقل، لها قوى حسية وقوى معنوية، ابن عربي تعمق في درس الخيال، وعلاقته بالنّفس والعلم والإبداع، والرؤيا والكشف والحدس من بينهم.

ومن الطروحات المهمة حول الهويّة، تأتي فلسفة ابن عربي حول وحدة الوجود كطرح لرؤيته الخاصة للهوية وللانتماء...

إن الواحد عند الوجوديين صفة ليس فقط للوجود كله، بل ولكل شيء بمفرده، فالوحدة الشّاملة تحضر في كل موجود في أدق ذرة من العالم والوجود، الواحد ينعكس في الشّيء فيمنحه وجوده وفرادته وأثنيته وبهذه الوحدانية تدرك الأشياء الوحدة التي تلفظها، فلا يعرف الواحد إلّا الواحد، حيث من خلال الواحد تترابط الأشياء أحدها بالآخر، ولكن ليس مجرد ترابط أفقي: "horizontal" انتشاري "extensive" مبدأ ابن عربي وأتباعه المتمثل بالواحدية الشّاملة "panenhenism" فقد فقالوا بشهود كل شيء من كل شيء، الوجوديون من خلال مذهبهم الأنطولوجي يعبرون عن المفاهيم الأساسية في اللاهوت الإسلامي، فالإله عندهم هو الوجود الواحد، والكون في كليته والذات والوجود والبحث، الوجود بما هو موجود، الحق والصفات: الحياة – العلم – الإرادة والقدرة وغيرها، التّعينات الكليّة للوجود، "فابن عربي" ومدرسته يمضون من توليد الإله إلى توحيد الوجود حضور مهم يرون في وحدة الوجود نفسها نزوعاً للمطابقة بين الخالق والمخلوقات.

إنّ الشّيخ الأكبر "ابن عربي" وغيره لم يقتصر على المطابقة بين الإله والعالم من زاوية الوجود فحسب، الشّيخ الأكبر يقول ما في الوجود من يقبل الأضداد إلّا العالم من حيث هو واحد، ومن ثم من يقبل الأضداد في وصفه إلّا الله، الإله عند "ابن عربي" ليس إلّا العالم المأخوذ في وحدته، الكل له والكل الكوني تدل عباراته التي تحدث فيها عن الإله، بأنّ: الكل له، بل هو عين الكل: الكل لله وبالله، بل هو الله فهو الكون كله كل شيء ...

وابن عربي يحذر من الفهم المبسط للصيغة المذكورة، لا يقال: في يد الإنسان وفي شيء من أعضائِه أنّه عين الإنسان، ولا غير الإنسان وكذلك أعيان العالم لا يقال إنّها عين الحق، ولا غير الحق بل الوجود كله حق، إله الوجودية الذي يرمز إلى وحدة العالم، يتطابق من حيث ذاته مع مبدأ الوجودية مع الوجود،

وتحديداً مع الوجود البحث المطلق، "ابن عربي" يقول: الحق هو الوجود والأشياء صور الوجود، وبذلك الإله عين الأشياء وهيولى العالم.

هذه المطابقة بين الإله وبين الوجود، تقود منطقياً إلى اللاكونية "Acosmism"، حيث إنه عند "ابن عربي" وأتباعه الأشياء المفردة ليس لها بحد ذاتها وجوداً واقعياً جوهرياً، فهي لا توصف بالوجود إلّا من حيث كونها أجزاء للكل الكوني أو أحوال للجوهر الواحد الوحيد، فمن هذه الزاوية يرى "ابن عربي" أنّه ليس في العالم سكون البتة، وإنّما هو متقلب أبداً دائماً من حال إلى حال والتجدد المستمر الكون هو نتيجة التّجلي الدائم للإله وظهوره في صور الموجودات، إنّه هذا التجلي ذاته، فزمان العدم زمان وجود المثل "فصوص الحكم، 156".

– الهويّة أو الذاتية عند "ابن عربي" (Identity) في عالم الصّيرورة الدّائبة يلتفت ابن عربي إلى وحدة الأشياء من حيث جوهرها، وتتجلى هذه الوحدة في نوعين من التّرابط: أفقي – عمودي.

– الأول: هو الارتباط الزماني بين الأشياء المتجددة الخلق، فما يتراءى للوهلة الأولى على أنّه شيء واحد لا يكون عند التّمعن الشيء ذاته في لحظتين مختلفين، وإنّما شيئين متشابهين (فصوص الحكم، 124)، ولكن الشّيء برغم هذا لا يفقد وحدته الأصلية هويته، وذلك لأنّ ما يطرأ عليه من تغيرات دائبة إنما هي مقدرة مسبقاً فيه، نابعة من ماهيته الجوهرية من عينه الثّانية. وهذه الوحدة الجوهرية تقوم في صلب التّرابط العمودي بين الأشياء، تطابق الإله الذي يتجلى بصور مختلفة في مختلف الملل والمعتقدات، والموجودات كلها هي صور مختلفة لجوهر واحد وتجليات متنوعة لماهية واحدة، فترد جميعاً في نهاية المطاف في الواحد المطلق (فصوص الحكم، 73).

– وابن عربي يرفض رفضاً قاطعاً مذهب الخلق من العدم المحض فالاتفاق مع المعتزلة يرى أنّ خلق الأشياء ليس إلّا انتقالاً لها من حالة مع الأنطولوجية إلى أخرى، من الوجود المعقول إلى الوجود المحسوس، من الوجود بالقوة /الإمكان/ إلى الوجود بالفعل.

اللاشعور عند ابن عربي، هو خزانة الخيال، حيث إن القوة المصورة هي إحدى قوى النفس، وهي تستمد عناصرها من الصور المحسوسة التي سبق أن احتفظ بها الخيال وخزانته، وهنا يبرز أهمية الخيال، ومكانته بين القوى النفسية الأخرى / وهذا ما وضحه في كتابه المهم المعنون بـ"الفتوحات المكية" حول وظيفة الخيال في الكشف العلمي...

لقد أقرّ "ابن عربي" باختلاف الأخلاق والعادات والآداب باختلاف الأزمان والأجيال بقوله الشّهير: "لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم (نزار عيون السود، 180) وهذه خير إشارة استناداً لفكر ابن عربي بأنّ: مفهوم الانتماء قابل للتبدل تبعاً للمتغيرات الحياتية وظروف المجتمعات.

مفهوم الهويّة والمواطنة

خلاصة حديثي عن موضوع الهويّة والانتماء، سوف أقف عند مفهوم المواطنة ربما بالقياس لذلك نؤسس لبذور المصالحة الوطنية، في الزّمن القريب القادم مؤسساً على انتماء لجغرافية المكان المتسع للجميع، المكان الذي هو سجل للذّاكرة القديمة والمعاصرة والحالية المضمخ بالدّماء الذّكية، لكل فئات الشّعب بكل التّلوينات الدّينية والعرقية، "فإن كان الجسد هو قدر الإنسان فالجغرافيا هي قدر الشّعوب" وفقاً "لفرويد"، الذي لا بدّ أن نكرّس الدعوة للانتماء له، لهذا الأصل، لينتفي من ثم كل الانتماء للفروع، فهكذا سوف يكون التّسامي قيماً رمزية لا تموت...

بحيث نسعى لنبرز ملامح مثل تفاصيل المستقبل الذي ستعيش في ظله أجيالنا من الأحفاد وسلسلة النّسب، حيث القلق يشتد وبذلك هذه الملامح مازالت غير واضحة وغير مكتملة، ولكنه بالإمكان البناء لأجلها.

قد يبدو التنبؤ أصعب فيما يتعلق بالمستقبل القريب، ولكن ثمة ملامح منظورة لا نعتقد أنّها ستتلاشى فجأة، وهذا يستدعينا إلى وضع تصورات مبدئية

للملامح الأساسية وفقاً للأولويات كما يقترحها الدكتور "قدري حفني" بشأن أولويات العمل القادم لما ينبغي التركيز عليه كما الآتي:

1) تدعيم الانتماء وتحمُّل الآخر المختلف.

2) تدعيم قيمة التفكير العلمي والابتكارية.

بينما يرى "د. مصطفى حجازي" الأدوار المستقبلية كما يلى:

- الإسهام في إنتاج الاقتدار المعرفي.
- بناء ثقافة الإنجاز كنقيض لثقافة الاستهلاك.
- تشكل الحصانة النفسية ومتانه الشخصية.
- بناء منهجيات التفكير التّحليلي التّركيبي عند الأطفال والشّباب.

والأمر الجوهري في إبراز ملامح إستراتيجية متكاملة لتأكيد قيمة الانتماء، والتي يمكن أن تساهم فيها كل وسائط التّنشئة، وتعمل على تنفيذها مؤسسات المجتمع من خلال الآتي:

تأكيد القيم المجتمعية التي تعمل على تحقيق الانسجام والوئام في المجتمع من خلال الأسرة، والمؤسسة التّعليمية والإعلامية والخطاب السياسي والخطاب الديني، من خلال مؤسسات المجتمع المدني مهما كان مستوى حضورها على ساحة الصراع.

- تأكيد مبدأ العدالة والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات.
- تأكيد عملية القدوة الصالحة في كل مواقع العمل، ويستدعى ذلك التّدقيق في اختيار القيادات في الوضع المناسب.
- وضع التّشريعات اللازمة التي تضمن وتؤكد الانتماء والمشاركة والمحافظة على المال العام وصيانته.
- العمل على معالجة الخلل والفجوات في آليات توزيع الدخل، والفجوات بين الرّيف والحضر.
- تأكيد دور الأسرة وضرورة قيامها بهذا الدّور، في غرس القيم الإيجابية

وفي مقدمتها قيمة الانتماء، باعتبار الأسرة أهم وأولى المؤسسات في عملية الّتنشئة.

– تأكيد دور المؤسسة التّعليمية في غرس الانتماء، وتقويته لدى الطّلاب من خلال المناهج والمحتويات والأنشطة والممارسات الطّلابية.

– تأكيد دور المؤسسة الإعلامية في تعميق الانتماء والولاء من خلال رسائل الإعلام المختلفة، مع إتاحة فرص واسعة للتّيارات الفكرية والسياسية المختلفة، للتّعبير عن آرائها وبرامجها وأفكارها المنضوية في إطار المصلحة الوطنيّة.

– أن يتم العمل على إبراز دور المؤسسة الدّينية في تعميق الانتماء إلى الوطن، بدلاً من إعاقته عبر الدعوات الضيقة للانتماءات الطائفية المغلقة والمتعصبة، ولردم هذه الهوة لا بدّ من التأكيد على روح القيم الّدينية وأبعادها الإنسانية الجوهرية لاسيما مبدأ المساواة والأخوة الذي يمكن أن يتماشى مع مبدأ المواطنة والعدالة الاجتماعية.

– ضرورة توفير الاحتياجات الأساسية المتمثلة في الغذاء والكساء، والصّحة والتّعليم وفرص العمل وحرية التعبير، ووضعها في أولويات خطط التّنمية.

– وضع الضّمانات التي تؤكد المساواة وعدم التّفرقة، بين المنتمين الى مختلف الاتجاهات السياسية والثقافية والاجتماعية والدّينية.

– ضرورة قيام الأحزاب السياسية والنّقابات ومؤسسات المجتمع المدني، بدورها في التّثقيف السياسي والاجتماعي وغرس القيم الوطنية.

– العمل على زيادة مشاركة المواطنين، سياسياً واجتماعياً بكل الوسائل لتكون مشاركة فعلية وفعّالة.

– العمل على تفعيل دور المؤسسات في المجتمع، وأن تكون القرارات من خلال المؤسسات لا الأفراد.

ومن خلال هذه الرّؤى المختلفة يمكن أن يكون مسارنا لعيش المواطنة والعدالة الاجتماعية، ضمن هويّة إنسانية وانتماء لقيم المنطقة التي أنشئنا على

ترابها، وفاء لأصالة أجدادها حصن حصين لهويّتنا الذاتية، وانتمائنا الصّادق للأصل الذي يجمعنا مع من عاشوا آلامنا نفسها ولهم آمال مشابهة لآمالنا...

هذا التّركيز على الهويّة الشخصية المبنية على ثقافة التّنشئة المناسبة للبيئة، ولكن يبقى الرّبط بين الهويّة الثّقافية والهويّة السياسية أمراً يؤدي دائماً إلى صراعات اجتماعية في داخل مجتمعاتنا، هذا الرّبط لا يكون حقيقياً إلّا عندما تعبر الهويّة السياسية عن الهويّة الثّقافية، التي يُنظر إليها على أنها فعل مرتبط بالماضي والمستقبل، بينما الهويّة السياسية فعل يقوم في الغالب على معطيات الحاضر، تبعاً (لمحمد عابد الجابري) فإنّ الهويّة الثّقافية لا تكتمل، ولا تبرز خصوصيتها الحضارية ولا تغدو هويّة ممتلئة قادرة على مناشدة العالمية، وعلى الأخذ والعطاء إلّا إذا تجسدّت مرجعيتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر.

1- الوطن بوصفه الأرض والأموات والجغرافيا.

2- التاريخ وقد أصبح النسب الرّوحي الذي تنسجه الثّقافة المشتركة.

3- الدّولة بوصفها التّجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة.

لنصل من خلال ما تقدّم إلى ما طرحه "هول استيوارت" بأنّ الهوية معطى موضوعي له عناصر ومقومات، وهي إحساس بكيانات ذاتية تتصاعد من الأسرة إلى الإنسانية، وبالعكس في أحوال معينة فالإنسان ينتمي بحكم كونه عضواً في مجتمع إلى أشياء تكوينات "هويات عديدة" هي مكونات شبكة العلاقات التي يدخل فيها بشكل مباشر أو غير مباشر، فهو ينتمي إلى أسرة معينة وإلى أشياء كثيرة..."الهويّات لا تكتمل ولا تنتهي أبداً، فهي بذلك كالذاتية نفسها في تطور وفي تغيّر وهو ذاته الأرق الصعب"...

من خلال هذا الفهم يجدر بنا التأكيد على دور الأسرة، في تحقيق هذا المفهوم التّنموي الحضاري، الذي ينبغي أن يتعاظم في المستقبل بتسهيل الأمور لها لتأخذ دورها الاجتماعي المنوط بها، والمؤثر في تأكيد الهويّة الاجتماعية وبالتالي أصالة الانتماء...